**العلم وسؤال الحقيقة!**

**هل يتعهّد العلم أن يكشف لنا كل الحقائق؟!**

**علي خضر غاشي**

رغم أنّ كلمة "العلم" بمفهومها الأوسع، تدل على كل طرق الإنسان الممنهجة والمنظومة في كشف الواقع ومخفياته، إلا أنها أصبحت أكثر دقّةً وتخصيصًا في واقعنا المُعاصر وألفاظه الاصطلاحية.

فالعلم اليوم لم يعد - بإطلاقه الصناعي - يمثّل راياتِ الكشف في طريق الحقيقة، بل أصبح راية "التجربة" في طريق الكشف. إنّ بزوغ نجم علم الطبيعة في القارة الأوروبية، وما صاحب ذلك من أحداث ووقائع هامّة -كالأزهار، وتطور العمران والصناعة - وموت عصر الظلمات الأوسط، ألقى في الذهنيّة المعاصرة ثقةً عميقة بـ "التجربة" وإيمانًا جوهريًّا بما تنتج وتضيف.

لقد أحسّ الإنسان المعاصر، وخصوصًا ذلك الإنسان الغربي - الذي عكس فيما بعد تطوره الإنتاجي والعلمي على الثقافة الشرقية - أنّه إنما تقدّم في العصر الذي زامن ارتقاء التجربة وقيمتها المعيارية، وازدهارها في الوسط الإنساني. لذلك راح يتعشق التجربة ويغازلها أينما حلّت وقرّت، ويحاول جلبها إلى كل ميدانٍ ودكّها في كل صعيد، لأنّه رأى آثارها الناجعة، وعصرها المتوهج بالأمل.

ربما ساعد في ذلك أيضًا، الجو العام للأرقام والسرعة، الذي ساد وتربّع في حيّز وجودنا، منذ أن ظهرت الأجهزة المتطورة والآلات الحديثة، وأصبح الناس - أو بعضهم - يؤمنون بالعلم لأنهم عاشوا في زمانه رغدًا، لكنهم - أو بعضهم - ينزعجون من التنظير والتفكير والتأمّل السارح البعيد، لأنهم ظنّوا أنه فراغ مقتم في ساحة العقل، وبُعد عن طريق الهدف والإنتاجات الواقعية.

ولكن، هل الناس يعيشون رغدًا فعلًا؟ - حتى يصح نسبة ذلك الرغد إلى العلم؟- وإذا كان الناس يعيشون رغدًا فعلًا، فما هو الدليل على كون العلم هو سبب هذا الرغد والسعادة الغامرة، دون شيءٍ سواه؟ ما هي المساحة التي تعّهد العلم أن يملأها لنا بإنتاجه، ويجعلها ضمن منطقة العمل؟ وهل العلم طريقةٌ لمعرفة العالم، أم لمعرفة ما وراءه..؟

هذه الأسئلة هي المفاتيح للبحث في أسلوب العلم وإطاره التنموي، وطريقته في الخروج الحقيقي والتأثير على الأفق، لقد رأى العالم - كما قدمنا - منذ الذروة في عصر النهضة إلى بدايات العصر الحديث، موجات متكرّرة وكبيرة متحفّزة تجاه العلم التجريبي، إلى درجة تدفع إلى إلغاء ميادين المعرفة الأخرى، وإقصاء مصادر كشف الواقع، المغايرة للآلية المتبعة في قاعة الاكتشافات أو غرفة المختبر.

لا نقصد بهذه الموجات، تلك الداعية إلى إحياء تقدم علم الطبيعة في وسطنا، فذلك بالضرورة جسرٌ حقيقي للتقدم والرقي، وإنما نقصد خصوص تلك الموجات التي تدّعي احتكار المعرفة في خزينة التجربة والمختبر، ونشير هنا إلى "المذهب العلموي" في فهم الكون، الذي يركن إلى أن الحقيقة مادية مطلقًا، محلّها الحواس ومنجمُها الطبيعة.

كان من آثار هذا المذهب، أو الطريقة التفكيرية في سياق للعلم، إقصاء كل المعارف والعلوم الإنسانية والتحليلية عن الإطار الإثماري من العلم، واعتبار الفلسفة وعلوم العقل والمنطق، ليست طرقًا كاشفة أو حتى مساعدة لفهم الواقع، بل كلامًا هزيلًا ومفرغًا طائشًا في الهواء، لا يمكن بأي حال اختبار صدقه، أو الاعتماد على نتاجه وإسهامه.

والواقع أن تيار إقصاء الواقع من خلال حبسه في سجن المختبر، ليس مجمعًا على إنكاره واعتراضه بالشكل الذي قد نتصوّر في الوسط النخبوي على مستوى العالم، فهذا عالم الفيزياء الشهير والعبقري الكبير البريطاني "ستيفن هوكينج" يقول: "إن معظمنا لا يمضي وقته في قلق بشأن الأسئلة - يقصد الأسئلة الكبرى الفطرية، كيف نشأ الكون؟ وما هو واقعه وآلية عمله؟ وإلى أين نحن متجهون؟ - لكننا كلنا - تقريبًا - نقلق بشأنها بعض الوقت، هذه الأسئلة تعد من الوجهة التقليدية فلسفية، لكنّ الفلسفة قد ماتت، الفلسفة لم تلاحق تطورات العلم الحديثة، وخصوصًا في مجال الفيزياء، أضحى العلماء - مقصوده علماء الطبيعة والتجربة - هم من يحملون مصابيح الاكتشاف في رحلتنا بحثًا عن المعرفة"[[1]](#footnote-1).

واتفق معه على ذلك، عالم الكيمياء الإنجليزي، عضو الجمعية الملكيّة للكيمياء "بيتر أكتنر"، حيث يقول: "لا يوجد سبب لافتراض أن العلم يمكنه التعاطي مع كلّ أوجه الوجود..."[[2]](#footnote-2).

أصر هذا الاتجاه على النظر إلى حقيقة العالم من نافذة وحيدة، وبلورة العلم من مفهوم ناضح متسع واسع الأرجاء، إلى بوتقة ضيقة لا تتجاوز ظواهر هذا العالم، ولا تنفذ إلى مكامنه الماورائية وأسراره الدقيقة، لقد ظنّوا أنّ الفلسفة ماتت، لكنّها لم تكن في الحقيقة سوى محاولة اغتيال!..

لذلك وجّه الباحثون والأكاديميون نقدًا واسعًا لفكرة العلموية الطاردة للفكر الفلسفي والإنتاج العقلي المجرد عن التجربة والمحسوس، ونعت "بول فايربند" أصحاب هذا الاتجاه "بالهمجية"، فقال: **"**الجيل الشاب من علماء الفيزياء كـ فينمن وشوينغر وغيرهما قد يكونوا ألمعيين وأذكى من أسلافهم، من بور وآينشتاين وشرودنجر، ولكنّهم همجيون وغير متحضرين، ويفتقرون إلى العمق الفلسفي"[[3]](#footnote-3).

وعدّ أستاذ جامعة سيتي كوليج "ماسيو بيغلوتشي" حصر الواقع في نشاط علم التجارب، - استعمارًا ثقافيًّا للحقيقة -، فقال في مقال أكاديمي له تحت عُنوان: (مُشكلة العلم): "حين يدعي المفكرون العلمويون أن كل نشاط علمي يتعلق بالوقائع يندرج تحت "العلم"، فهم يسعون إلى حركة استعمار ثقافيّ عارٍ، تعرّف ما تبقى خارج للوجود أو خارج الاعتبار"[[4]](#footnote-4).

إنّ هذا البحث مركزيّ لصياغة الرؤية الكونية في ضمير الإنسان ومكنونه، إذ إنّ لازم الإيقان لفكرة العلموية: هو حصر الحقائق في إطار الظواهر والمحسوسات، وخصوص ما يمكن اختباره أدواتيًّا في المعمل، وبالتالي طرد حقائق العقل المحضة والصرافة التي لا يمكن وضعها في مائدة المواد والحاسّة، كالله والملائكة والغيب، وغيرها... لذلك يُعدّ بحث مصادر استسقاء الحقيقة مهمًّا في فهمنا لموقعنا إزاء الكون، وواقعيّتنا الوجدانية.

إنّ الرؤية الدينية - التي أثبتناها -  تعتبر من العقل أساسًا لانبثاق المعرفة والعلم، والتجربة إنّما استطاعت أن تصل لما وصلت إليه من المجد بمعيّة العقل ودوره الكامن معها، إنّ العقل هو حجة الله على خلقه، ورسوله الباطن في ذواتهم، كما قال ذلك الإمام الصادق (ع): "حجة الله على العباد النبي، والحجّة فيما بين العباد وبين الله العقل"![[5]](#footnote-5).

ومن هنا برزت الحاجة في وسط الفكر الإنساني إلى ظهور علمٍ جديد، وهو العلم الذي يهتم بقيمة المعرفة والإنتاج العلمي، ويصبّ كلّ هيكله للإجابة على هذه الأسئلة: متى يكون الإنتاج العلمي قيّمًا وذا بريق مثمر وموضوعي؟ ما هي مصادر كشف الحقيقة في الوسط العلمي؟ وكيف يتقوّم ذلك؟ وما هو مناط اعتباره؟... وهو ما عرف في ما بعد بـ "نظرية المعرفة"، أو "الإبستمولوجيا"، إذ ليس من المعقول أن نجعل علوم الطبيعة والفيزياء هي التي تحكم متى يكون العلم صحيحًا ومثمرًا؛ للاحتمال القوي لدخول الأغراض الفكرية القبلية في الإنتاج البحثي، كذلك لا يعقل أن نجعل الوجود العملي "للفلسفة" هو الرد الوحيد على إقصائها وإبعادها؛ لذات السبب والمبرر، لذلك لا بدّ من الاستعانة بهذا الحكم الرئيسي لهذا المفترق من الطرق في الأثير الفكري والبنية التحتيّة للمنهج العلمي، وهذا ما سنركّز البحث حوله فيما يلي.

**الحاجة لنظريّة المعرفة.**

تختص نظرية المعرفة ببحث طرائق التوصل إلى الواقع والحقيقة في الفكر الإنساني، وتجيب عن سؤال متى تكون المعرفة قيّمة، ومن أجل ذلك رأت الاتجاهات الإبستمولوجية المتنوعة نفسها في مصادمة مع الطريقة الإنتاجية الحاصرة للاتجاه العلموي.

وسجلت نظرية المعرفة نقدًا منهجيًّا واسعًا إلى الاتجاه التجريبي، نكتفي هنا بذكر ثلاث ملاحظات ناجعة ومفيدة في هذا السياق:

**الملاحظة الأولى: تناقض المنهج التجريبي مع هيكله الذاتي.**

يدّعي المفكّرون من أنصار الاتجاه العلموي، أنّ الحقيقة لا يُمكن أن تُكتشف إلّا ضمن الملاحظة والتجربة والإنتاج المختبري، ولأجل ذلك وبحجّته يستبعدون ويخطّؤون كلّ النتائج ذات الطابع العقلي المجرّد الغير قابل للتموضع المادّي، ولكنّ هذا الاتجاه وقع في التناقض في نفس مقالته هذه من حيث لا يشعُر!

وإيضاح ذلك: أنّ العمود الفقري لهذا الاتجاه (أن التجربة هي الكاشف الوحيد لجسم الحقيقة) ولكن هل هذا العمود الفقري، وهذه الجملة الأساسيّة للمذهب العلموي، تجريبيّة؟ أم لا؟!

من الواضح أن التجارب العلمية تكشف لنا نتائج جزئية متعلقة بمواد أو الاختبار، ولا يشك أحدٌ من أهل النظر على المستوى الإنساني كون التجربة والحاسّة طريقًا إلى الحقيقة المعرفيّة، لكنّني أتساءل.. ما هي التجربة التي أفادت الاتجاه العلموي بأنه (لا طريق للحقيقة إلا التجربة)!؟، وهل هُناك تجربة أثبتت فعلًا هذا الشيء، أم لا؟

ومن المعلوم أن غاية ما تعطيه التجارب لنا هي أحكام ونتائج جزئية متعلقة بظاهرة طبيعية، فأيُّ تجربة هذه التي أثبتت اتجاه المذهب العلموي! إنّ نفس حصر الحقيقة في التجربة، لا دليل تجريبيّ عليه، وبالتالي لا صوابيّة فيه.

إنّ نفس أنصار المنهج استعملوا في كثير من الأحيان، أدلّة عقلية نظرية ليدعموا فكرتهم، وأتساءل: إن كانت التجربة هي الطريق الوحيد إلى الحقيقة؟ فكيف تستعملون العقل في الدلالة على ذلك؟ وأي حجية للعقل المجرد بناءً على ما تقولون؟

التجربة إنما تُثبت وصولها لبعض الأحكام الطبيعية الخارجية - وفق آلية سنعرض لها في الملاحظة الثانية - لكنّ التجربة بما لها من صفة إثباتية طريقية، لا تقوم بنفي الإنجاع عن الطرق الأخرى، فلا يوجد تجربة يمكن أن تنقض منهجًا في كشف المعرفة، لأن التجربة اختصاصها كشف ظاهرة طبيعية، وليس إنتاج حكم كلّي فيما يتعلق بمنهج الوصول إلى المعرفة - نفيًا وإثباتًا -.

إنه لا يوجد تجربة تدل على أنه (لا قيمة للمناهج العقلية العلمية غير التجريبية)، وهكذا يقع الاتجاه العلموي في تناقض كبيرٍ مع قاعدته الجوهريّة ومشروعه الأساسي.

فإن قيل: إن مجموع التجارب قد اجتمعت عند أهل الطريق العلموي، حتى خرجوا بهذه الفكرة من الإنتاج المجموعي للتجارب المختلفة.

كان جوابنا في زاويتين:

**الزاوية الأولى**: أنّ نفس عملية تجميع هذه التجارب المختلفة، وضمّ بعضها إلى بعض، والمقارنة بين إنتاجاتها، ومحاولة استخلاص حكم جامع من بين كلّ تلك الثمار، هي عملية عقلية لا عملية تجريبية مختبريّة، ولا يمكن البناء عليها بمقاييس الاتجاه العلموي! وإذا تمّ اعتمادها فهي دليلٌ لنقضها ومخالفتها، لا لدعمها والميل إليها.

**الزاوية الثانية**: أنّ هذه التجارب بمجموعها تحمل صفة إثباتية لمنهجها، ولا تحمل صفة نافية لمناهج المعرفة الأخرى، فإذا أتينا بتجربة أ و ب و ج و د و هـ و ز و ع، إلى مئة تجربة أخرى، وتبينّا كيف كانت هذه التجارب كاشفة للحقيقة الواقعية فعلًا، فإن غاية ما يفيد ذلك - منطقيًّا - هو صحّة الاعتماد على التجربة كطريق لكشف الواقع، ولا يفيدُ ذلك أبدًا أننا يمكن أن نختزل الحقائق في الماديّات التجريبية، ونعزل الحقائق والإدراكات العقليّة المحضة.

وهذا ما أشار إليه المفكّر والفيلسوف "الشهيد المطهري" في تعليقه وحاشيته على كتاب "أصول الفلسفة والمذهب الواقعي"، حيث يقول: "وإذا آمنّا بأن الحكم الصحيح ينحصر بالحكم الذي تضمنه التجربة، حينئذ نتساءل: هل حكمنا هذا - مع أن الصحيح هو الحكم الحاصر جراء التجربة فقط - صحيح أم خطأ؟ فإذا كان خطأً إذن أصبحت دعوى المنطق التجريبي خاطئةً،... وإذا كان صحيحًا ومنطقيًّا، فهل هذا الحكم ذاته وليد التجربة أم لا؟... "[[6]](#footnote-6) فتأمّل.

**الملاحظة الثانية: حاجة العلم التجريبي إلى ضميمة الاستنتاج العقلي.**

تركز هذه الملاحظة على تحليل الخطوات الجزئية التفصيلية لعالم الطبيعة في المختبر العلمي، ونوعيّة العمليات التي يقوم بها الباحثون التجريبيون خلال عملياتهم الاختبارية وإجراءاتهم التطبيقية، هل كلّ الخطوات التي يقوم بها العلم الطبيعي نحو الاستنتاج هي خطوات تجريبيّة فعلًا؟، وهل نتاج العلم التجريبي تعزى ملكيّته الصرفة إلى المختبر، أم يشاركه شيءٌ آخر؟

الواقع أنّنّا إن قلنا إنّ المختبر هو المنطلق الوحيد للحقيقة، فهذا يعني أنّه لا توجد حقيقة كلّية في العالم؛ لأن المختبر يعتمد على فحص جوانب جزئية مصداقيّة، لكنّه لا يمتد إلى جوانب المفاهيم الشاملة.

إننا يُمكن أن نختبر 1000 قطعة من المعادن في المختبر، ونجد أنها فعلًا تتمدّد بالحرارة، لكننا لا يمكن أن نجمع فيه كلّ معادن العالَم، المختبر يخبرنا أنّ هذه الكمية التي اختبرناها من المعدن تقوم بالتمدد إذا تعرضت للحرارة، لكنّه لا يخبرنا بشكلٍ مباشر أنّ (كل معدن فهو يتمدد بالحرارة)، ولا يخبرنا كذلك أنّ (الحرارة هي سبب التمدد للمعادن)، وغاية ما نراه كمُختبريين هو تعاقب بين التعرض للحرارة والتمدد المعدني، وهذا التعاقب بحدّ ذاته لا يدل على كون الشيء الأول هو "سبب" الشيء الثاني، ولا يجعل بينهما علاقة العليّة والمعلولية المتلازمة؛ لأنّ مجرد تعاقب الأشياء بشكلٍ كثيف ومكرر لا يدل على كون الأوّل سببًا للثاني، فهذا هو الليل يعقب النهار في كلّ يوم، رغم أنّ النهار ليس هو سبب حدوث الليل، والعلاقة بينهما هي علاقة تراتب وليست علاقة عليّة، والعلّة في تعاقبهما خارجة عن جنسهما، وهي دوران الأرض، فكيف حكمنا - تجريبيًّا - أن الحرارة هي سبب تمدد المعدن، رغم عدم دلالة التعاقب - وإن كثر - على وجود السببية؟

أضف إلى ذلك: أننا نعلم قطعًا وجزمًا أنّ عدد القطع التي جلبناها إلى المختبر، وأجرينا عليها التجربة، وأظهرت لنا النتائج، -سواءً كانت ألفًا أم مئة ألفٍ - هي أقل جزمًا بآلاف الأضعاف مما هو موجود في الطبيعة الخارجية مما لم نجر الاختبار عليه.. فنحن لم نختبر إلا القليل النادر من الكثير المتكاثر، فكيف حقّ لنا أن نُصدر حكمًا كليًّا في النهاية (كل معدن فهو يتمدد بالحرارة) رغم أن عيّنة الاختبار كانت نادرةً وشاذّة قليلةً إلى حكم الخارج الموجود المتضاعف؟ أليس يُحتمل أن تكون لهذه العينات القليلة التي اختبرناها حكمًا خاصًّا لعلة طارئة أو عامل آخرٍ دخيل؟ ثمّ إنّ نفس انتقالنا من الجزئيّ إلى الكلّي، وعملية ارتحالنا مما رأيناه في المختبر من سلوك هذه القطع المعدودات، إلى إصدار حكم عامٍّ وشامل نعتبره مطّردًا ونافذًا في كل حين، هل هي عمليّةٌ تجريبية، أم عقليّة استنتاجيّة تعمّقية؟

والواقع يقول: ليست تجريبية، لأن في المختبر 1000 قطعة من المعدن وليس كل معادن العالم، والمعادن الأكثر متناثرة في أرجاء الوجود، وليست تحت سيطرتنا البحثيّة، إذًا فهي عمليّة انتقالٍ عقليّ من جزئيّ أقل إلى كليّ أكثر، مبنيّة على القواعد والنظم التي حددتها الفلسفة للاستقراء التام والناقص، وطريقة البحث وإصدار الأحكام، ولولا الاعتماد على الفلسفة لتساعدنا على أن نطبّق نتائجنا المخبريّة على ما هو خارج في العالم، لما استطعنا أن نعمّم حكمًا علميًّا، لأن التجربة ونتائجها أحكام جزئية، والتعميم وإصداراته أحكامٌ عقلية فلسفية.

وأمّا حكمنا على العلاقة بين الحرارة وتمدد المعدن "بالسببية"، فلم يكن بسبب كثرة تعاقبهما، لأنّ الليل يعقب النهار كلّ يوم، ولا نحكم بالسببية بينهما، بل كان في الأصل بسبب اعتمادنا لقانون: "حساب الاحتمالات" المنظّم في علم المنطق الرياضي.

فعندما وجدنا "تعاقب الليل والنهار" ظاهرة حادثة متكررة في هذا الكون، قمنا بعمليّة الجمع والمقارنة والمواءمة بين ملاحظتنا لهذا التعاقب من جهة، واكتشافنا لحقيقة دوران الأرض اليومي حول نفسها من جهة أخرى، وأجرينا قانون حساب الاحتمالات أيضًا، ونتيجةً لهذه المقارنة والمواءمة قمنا باستنتاجٍ عقليٍّ لإعزاء التعاقب إلى الدوران، ولم يكن هذا استنتاجًا ملاحظيًّا أو تجريبيًّا، لأنّ الملاحظة إنما أخبرتنا بالتعاقب اليومي، وبدوران الأرض من جهة أخرى، وظلّت صامتةً لا تحدثنا عن العلّة الحقيقية والسبب الواقعي، والذي أخبرنا وساعدنا لاستنتاج الحقيقة العلمية هنا هو العقل بالمستوى الأوّل!

ولمّا أجرينا "قانون حساب الاحتمالات" في ظاهرة تمدد المعدن، لم نجد عملًا آخرًا دخيلًا مع الحرارة كما وجدنا الدوران مع التعاقب وقارنّا، ولمّا لم نجد عاملًا آخرًا، رجحت كفّة الاحتمال الأوحد وهو كون الحرارة هي سبب ومحرّك لهذا التمدد، فكانت قرينةً عقليّة في الاستنتاج، لأنّ التجربة أظهرت لنا أمرًا ولم تدفعنا إلى التحليل، ولم تعلّمنا كيف نستنتج، بل فعلنا كلّ ذلك بمعيّة العقل، فوصلنا إلى الاستخلاص العلمي.

لم أقل هذا الكلام لأقلّل من قيمة التجربة أو إنتاج العلم الطبيعي، بل لأؤكد أنّ التجربة والعقل ثقلان لا يفترقان عن غدير الحقيقة، وأنّ العقل المجرّد المتمثل في الفلسفة لا بدّ أنّ له فضلًا كبيرًا أيضًا في كلّ تقدم كذلك.. وقد ذكر الفيلسوف العراقي الكبير، الشهيد السيد محمد باقر الصدر، هذه الملاحظة على المذهب التجريبي المتشدد، في كتابه اللامع (فلسفتنا)، حيث يقول: "إن العلوم الطبيعية التي يريد التجريبيون إقامتها على أساس التجربة الخالصة هي بنفسها تحتاج إلى أصول عقلية أولية سابقة على التجارب، ذلك أن التجربة إنما يقوم العالم بها في مختبره على جزئيات موضوعية محدودة، فيضع نظرية لتفسير الظواهر التي كشفتها التجربة في المختبر وتعليلها بسبب واحد مشترك، كالنظرية القائلة بأن سبب الحرارة هو الحركة استنادًا إلى عدة تجارب فسرت بذلك، ومن حقنا على العالم الطبيعي أن نسأله عن كيفية إعطائه للنظرية بصفة قانون كلي ينطبق على جميع الظروف المماثلة لظروف التجربة، مع أن التجربة لم تقع إلا على عدة أشياء خاصة، أفليس هذا التعميم يستند إلى قاعدة وهي: أن الظروف المتماثلة والأشياء المتشابهة في النوع والحقيقة يجب أن تشترك في القوانين والنواميس؟

وهنا نتساءل مرة أخرى عن هذه القاعدة، كيف توصل إليها العقل؟ ولا يمكن للتجريبيين هنا أن يزعموا أنها قاعدة تجريبية، بل يجب أن تكون من المعارف العقلية السابقة على التجربة، لأنها لو كانت مستندة إلى تجربة فهذه التجربة التي ترتكز عليها القاعدة هي أيضًا لا تتناول بدورها إلا موارد خاصة، فكيف ركّزت على أساسها قاعدة عامة؟ فبناء قاعدة عامة وقانون كلّي على ضوء تجربة واحدة، أو عدة تجارب لا يمكن أن يتم إلا بعد التسليم بمعارف عقلية سابقة"[[7]](#footnote-7).

**الملاحظة الثالثة: نظريات العلم الطبيعي فيما لا يمكن إجراء التجربة عليه.**

إذا كان "العلماء التجريبيون" يصرّون على حصريّة منهج التجربة في كشف الحقيقة، فهل يلتزم بهذا العلم نفسهُ؟!

تترقّى هذه الإشكالية والملاحظة الثالثة، من مناقشة مصدر القاعدة الأولى للعلموية، وتتحرر من الجدل في الأسلوب التفصيلي للبحث العلمي، وتوجه نظرها بدلًا من ذلك إلى واقع الإنتاج العلمي في حقول المعرفة التجريبية.

نجد أنّ نتاجات المعرفة التجريبيّة، "وإن كانت تجريبيّةً من حيث الاسم - إلّا أنها ليست تستند دائمًا وعلى الضرورة إلى التجربة! ربما نتفاجأ من واقعيّة الاسم أو مصداقيّة الاختصاص، إذا قرنّا ذلك بآلية بعض المنتوجات ونوعها، لكنّ هذه الدعوى - دعوى خروج العلم التجريبي عن سياقه - ليست استنتاجيّة أو تأويلية نقدمها، بل دعوى علماء التجربة أنفسهم، والباحثين في إطار التنوع وفلسفة العلوم.

إذا كان العلم قد أنتج لنا رؤًى ونظرياتٍ خارجة عن سياقه التجريبي، فلن يكون هذا - بناءً على رؤية العلمويين - إلّا عدولًا للعلم عن هدفه الأساسي، وهو كشف الحقيقة وتطويعها لخدمة الإنسان، ولا بدّ أن يُصدر العلمويين حكمًا بموت العلم إذًا، للسبب ذاته الذي أصدروا به صكّ موت الفلسفة، ولم يكن موتًا بل محاولة للاغتيال!

إنّ صعود بعض التفصيلات لنظريات العلم، واعتبارها روحًا حقيقيًّا للأقسام الرئيسية للدراسة، مع كونها مستحيلة التجربة أو غير ممكنة الاختبار، أثار هذا الأمر إشكال الإنصاف العلمي لدى كثير من الباحثين والمتتبعين، ورأى بعضهم في ذلك حيادًا عن طريقة العلم الرئيسية ومشروعه الأساسي، المعتمد على التجربة في كشف بعض الحقيقة لا كلّها، في إدانة واضحة لفكرة العلموية.

لماذا يتدخل العلم ويبدي نظريات لا يمكن تجريبُها؟ لهذا السبب تحديدًا سجّل الفيلسوف الشهير " كارل بوبر" انتقاده على نظريّة التطور البيولوجيّة، حيث قال: "خلاصة ما توصلت إليه أن الداروينية ليست نظرية علمية قابلة للاختبار، بل هو برنامج ميتافيزيقي"[[8]](#footnote-8).

إذا كان العلمويين يدّعون احتكار الحقيقة لصالح التجربة، فكيف يمكن أن يفسّروا اعتبارهم لنظرية التطور الداروينية نظريّةً كاشفة لحقيقة علمية؟ وهي التي لا يمكن جلبها إلى المختبر، ولا التحقق من مصداقيّتها تجريبيًّا، بل هي تتعلق ببرنامج متسلسل ابتدأ منذ فجر التاريخ، بل مما قبل التاريخ في الحقيقة! ألا يعكس هذا تناقضًا صريحًا؟

وإذا كان الحقل المعرفي للأحياء التطورية قد مدّ ذراعه ليصل إلى "ما بعد التجربة" في نتاجه، فلم يكن في ذلك إلّا رديفًا لعلم الفيزياء الكوني، الذي قدّم لنا بدوره نماذج نظريّة معتمدة علميًّا، لكن لا يمكن اختبارها ولا إجراء التجربة عليها، ولا رصدها أساسًا.

وهذه "نظرية الأكوان المتوازية" مثالًا أيضًا، وطبقًا لهذه النظريّة فإنّ عالمنا ما هو إلّا فقّاعة واحدة في أثير من الفقاقيع المتناثرة في الأثير الأوسع، وإنّنا وحسب نطلق على كلّ فقاعةٍ منها " كون".. إنّ الكون متعدّد وليس واحد، ومركّب وليس بسيط، ومتكاثر وليس متركّز.. وهناك أكوان وأكوان لا تعدّ ولا تحصى، ووجودنا في عالم منتظم ما هو إلّا فرصة حصلنا عليها لحظّنا المرتفع في فقّاعة مؤهلة ومناسبة للحياة!

وإننا بمعزل عن إصدار موقف من هذه النظرية - والتي نوليها احترامًا وشعورًا - إلّا أننا نقول: إنه لا يمكن تفسيرها ولا فهمها وفقًا للمنهج العلموي الاختباري، لأنها تتحدث عمّا لا يمكن اختباره ولا تجربته، بل لا يمكن رصده أصلًا.

لذلك انزعج بعض علماء الفيزياء الكبار من أمثال البريطاني "بول ديفيز" من إضافتها إلى حقل العلم الكوني، وعبّر بأنها تصلح لتكون فلسفة لا علمًا، أي نتاج عقلي وليس تجريبي، حيث يقول: "إن فكرة الأكوان المتعدّدة أو الوقائع المتعددة (multiple realities) بقيت في دوائر الفلسفة لقرون، غير أن التبرير العلمي لها هو أمر جديد"[[9]](#footnote-9).

وقد التُفت لهذه المعضلة الكبيرة في الوسط الأكاديمي، ولا تفرض علينا الأمانة العلميّة إلا أن نذكر أن جهودًا معينة تسعى لحلّها، عن طريق محاولة جلب هذه الفكرة بطريقةٍ ما إلى الواقع التجريبي الاختباري، وهو ما يقوم به ماثيو جونسون وزملاؤه في معهد (Perimeter)، وكلّ هذه المحاولات إنّما يمكن أن تختزل في فكرة واحدة، وهي محاكاة الظروف الفرضيّة واختبارها، إلا أنها دون جدوى عمليّة معتمدة علميًّا لحدّ الآن[[10]](#footnote-10).

الواقع أنّ الاضطراب قد يسيطر على حالة المنهج العلمي في مثل هذه الموارد، وليس اضطرابًا بمعنى الاختلاف في الرأي النظري فقط، بل بمعنى تزلزل الوضوح لطريقة العلم برمّته، هذا ما يمكن أن نستطلعه من اللكنة الانزعاجيّة لـ "روجر بينروز" ، في قوله: "ما معنى أن تقول عن شيء إنه موجود، وأنت لن تستطيع من حيث المبدأ ملاحظته؟"[[11]](#footnote-11).

الأمر الذي استثار صديقه العبقري "ستيفن هوكينج" فيما بعد، ليرد عليه قائلًا: "إنّه أراد بعض اللاواقعيين قصر العلم على الأشياء التي يمكن ملاحظتها"[[12]](#footnote-12)!

وهنا يتجه السؤال إلى هوكينج، ليكون: إذا كنتم ترون أنّ الفلسفة ماتت حقًّا، فكيف يمتد العلم إلى التوصّل إلى غير الملاحظ والمحسوس؟ فإن كان الجواب هو العقل والمنطق، أو الرياضيات - والرياضيات ليست إلا تطبيقًا رقميًّا لنظريات المنطق الكلية- فإنّ ذلك هو عمل الفلسفة بذاته، فلماذا تموت الفلسفة ويحيا العلم، لا بدّ بحسب قولكم هذا، أنهما إما أن يعيشا معًا، أو يموتا معًا.

ومن المفارقة أنّ بعضهم ممن ينتسب للتيار العلموي، يضحك ويستهزيء من الإيمان بفكرة الملائكة أو الله، لأنها حقائق ميتافيزيقيّة من وراء الملاحظة والرصد، لكنّه في آن الوقت يكنّ احترامًا بليغًا للاعتقاد بنظرية الأكوان المتوازية، الغير قابلة للرصد ولا للملاحظة كذلك!

إنّ نظريّة الأكوان المتوازية هي نحو آخر من الإيمان بالغيب، لكنّ الفارق أنّ الذي تدعو إليه هي العلموية وليس الوحي، إنّ الذين يسخرون من دعوة الدين إلى الغيب وما وراء الطبيعة، والحقائق الغير مرصودة بدعوى أنهم متطورون ويميلون للعلم والحداثة، ما هُم إلّا متدينون بالغيب من جهة أخرى، من حيث لا يشعرون، إنّهم يضحكون من فكرة الملائكة لأنّه لا تنطبق عليهم مقاييس التجربة، لكن يملؤون أنفسهم بشعور الرقي عندما يتحدثون عن أكوان متوازية، لا تنطبق عليها مقاييس التجربة أيضًا.

لا أعلم لماذا ركزت الاتجاهات ما بعد الحداثوية على قلب الموازين والمعايير في ذهنيّة الإنسان المعاصر، على كلّ حال لم يكن المقصد من إيرادي لهذه النظريات هو التسخيف لها أو الحط منها، ولا بدّ من احترام وتقدير كل نتاج علمي يرمي إلى كشف الحقيقة للبشريّة، إنما أردت أن أبيّن أنّ نفس النتاج العلمي في الحقول التجريبيّة لم يلتزم بفكرة العلموية، ولم يحصر نفسه في إطار التجربة فقط.

إنّ وجود هذه النظريات - ولا شك في علوّها ومركزيتها في الوسط العلمي - في النموذج المعرفي الحديث، هو أكبر إدانة للاتجاه العلموي، لأنه يثبت أن نفس اتجاه العلم لا ينطبق على ما يريدون.

إنّ محاولات اغتيال الفلسفة، قد تمتد بأثر رجعي لتنال من العلم، لأنّه لا حياة للعلم بدون الفلسفة، ولا حياة للفلسفة بدون العلم، لأنّه "من فقد حسًّا فقد علمًا"، ومن فقد عقلًا، فهو مجنون!

**وقفة نقديّة مع السمات العامّة للاتجاه العلموي.**

تقدّم الكلام حول أهمّ المآخذ والملاحظات التي يمكن أن تسجلها نظرية المعرفة ممثلة بـ "الإبستمولوجيا" على المسلك التجريبي، والتي يُمكن أن نحددها في تحرير الفكرة وواقعيتها ومنتوجها، والصدام الواقع بين جوهرها، وبين تلك الأطراف الثلاثة.

نريد أن نقف هنا لنتحدّث عن أهم الصفات والملامح لهذا الاتجاه العلموي، الذي يشهد تناميًا واضحًا في الصعيد الإنساني، إنّ التعرّف على العلموية هو بداية الطريق إلى دراستها، بعد تحرير فكرتها طبعًا.. وتعاطف الإنسان الحديث مع العلم التجريبي هو الحجر الأساس للتبشير بفكرة الحصر التجريبي، وحسن ظنّ العامّة بالمختبرات، وذوبانهم تحت شعار (أثبتت الدراسات العلمية) -بعد ما رأوا في الفترة الأخيرة من العلم تلفازًا وجهازًا طبيًّا، وهاتفًا نقّالًا وفّر لهم موجة كبيرة من السعادة والمتعة الحياتية - هو رأس مال العلموية، التي تتخذ منه أساسًا لتنتشر وتستشري بناء العواطف والميولات الشعورية، وربما كانت تلك العواطف هي السبب في ظهور العلموية من حيث مبدئها أيضًا.

وإذا أردنا أن نبسّط القول لنحدّد السمات العامة لهذا الاتجاه العلموي، فسنكون أمام مجموعة من الصفات والخطوط والأسس، التي تمثل بمجموعها "هويّة العلموية"، وهنا نقف عندها بشكلٍ عام ونعلّق على كلّ واحدةٍ منها.

**السمة الأولى: الاحتكار المعرفي.**

لم تكن الكنيسة الكالوثيكيّة عندما أقدمت على محاكمة جاليليو المثال الوحيد لاحتكار المعرفة في التاريخ الأوروبي، وإنما سنّت الكنيسة عبر رجالها المتطرفين آنذاك البادرة الحقيقية لامتداد الإقصاء والتهميش في المستوى العلمي، والذي استمرّ مداه حتى عندما خفتت الثيوقراطية وتضاءل الصوت الكهنوتي.

وإذا كان العلمويون يصرّون على اعتبار التجربة هي الطريق الوحيد إلى الحقيقة[[13]](#footnote-13) فما ذلك إلا نفس النوع لاحتكار المعرفة، ولكن من جهة أخرى!

إنّه لا يصح أن يكون موقف الناقدين للنزعة الدينية المتطرفة -المقصية للعلوم الطبيعية- موضوعيًّا وسليمًا، إلّا إذا كان لهم نفس الموقف تجاه نزعة العلموية إلى طرد الحقائق العقلية من الواقع المعرفي، ممارسة الاحتكار لا بدّ أن تكون منبوذة ومدانة، لأنها مصادرة على عطاءات الآخرين، ولا بدّ أن لا تكون هناك "حصانات دبلوماسية" في هذا الإطار، إقصاء معارف الآخرين إن كان قبيحًا من الكاثوليكيين فهو كذلك من العلمويين، وإذا كان الكاثوليك يمارسونه في السابق، فالعلمويون يطبقونه اليوم.

النتيجة الحتمية لطرد معارف العقل وتوصلاته الخاصة هي طرد الفلسفة والقانون والاقتصاد والاجتماع، وهي علوم تغذّي مسيرة البشرية نحو النموّ، ولذلك نجد اتجاهًا كبيرًا عند أهمّ الرواد والعلماء في حقول التجربة والطبيعة إلى رفض فكرة العلمويّة ومجابهة انتشارها وتوغلها حتى في الأوساط البحثية والأكاديمية.

 ومن الذين تبنّوا هذا الموقف الفكري:

- عالم الفيزياء الشهير "آرفين شرودنجر" - النمساوي البارز والحاصل على جائزة نوبل للفيزياء 1933، حيث قال: "إن العلم لا يقدّم إلا صورة ناقصة عن الواقع الخارجي، إلا أن هناك أمورًا كثيرة لا يقدّم العلم عنها جوابًا، بما فيها الأمور التي هي قريبة من قلوبنا، بما فيها الله والخلود، العلم يتظاهر أحيانًا للإجابة على الأسئلة في هذه المجالات، ولكن الأجوبة في كثير من الأحيان جدًّا سخيفة، بحيث إننا لا نميل إلى أن نأخذها على محمل الجد"[[14]](#footnote-14).

- عالم الطب الشهير "بيتر مدوار" - البريطاني البارز والحاصل على جائزة نوبل للطب 1960، يقول: "وجود حدود للعلم أمر ظاهر، من عجزه عن الجواب على أسئلة الأطفال الأولية المتعلقة بالأمور الأولية والنهائية، وهي أسئلة مثل [كيف بدأ كل شيء؟]، و [لماذا نحن كلنا هنا؟] و [ما الغاية من الحياة؟]"[[15]](#footnote-15).

- الفيلسوف النمساوي الشهير "فتجنشتاين"، حيث يقول: "الوهم الكبير للحداثة هو أن قوانين الطبيعة تفسّر لنا الكون، قوانين الطبيعة تصف الكون، فهي تصف الانتظام، لكنها لا تفسر شيئًا"[[16]](#footnote-16).

إنّ إثبات الشيء لا ينفي ما عداه، وإنّما ينفي نقيضه ومضادّه، فإذا قلت: الشمس طالعة، فذلك يعني أنّ النهار موجود، ولكنّه لا يعني أنّ الليل لن يأتي.

لقد تغالطت العلمويّة في هذا الاحتكار، أو "الاستعمار"، كما سمّاه بيغلوتشي، لأنهّا خالفت بذلك أسلوبه الطولي المتحرّك في مجاله الإنتاجي، لتحوّله إلى لولب، أو دائرة فارغة، حُبست الحقيقة بداخلها.

**السمة الثانية: غياب الموضوعيّة وافتقاد حريّة البحث.**

التجربة هي طريق "العلم" إلى الحقيقة، ولا يمرّ هذا الطريق إلّا بالوظيفة الأساسية للعلم، وهي الإجابة على أسئلة الطبيعة. إنّ السؤال هو بادرة البحث العلمي، وهذا يفترض إتاحة المجال الأكبر من الحرية للعلماء في وضع الأسئلة المهمّة مهما كانت طبيعتها؛ ليسلطوا أبحاثهم المعرفية لإصابة أجوبتها ومضامينها، ومن ثمّ إفادة العالم بمحتواها.

لقد كنت أظنّ في السابق أن علماء الطبيعة أحرار، وأن من حقّهم أن يضعوا أيّ سؤال علمي في اختصاصاتهم ومجالاتهم المعرفيّة.. وكنت أظنّ أن المؤسسة العلميّة المعتمدة لا تمارس الضغط على العلماء والباحثين فيما يتعلّق بأبحاثهم ونتائجها! وأنّ  الطابع العام في الوسط العلمي لا يتشدّد على أفكار معينة ويمنع من تجاوزها.. بل يصب عمله بشكل مباشر نحو الحقيقة، ونحو خدمة الإنسان، أينما قرّت واستقرّت.

كنت أتصور أنّ أصحاب المكانة في وسط العلم لا يمنعون ظهور الأبحاث التي لا تروق لمزاجهم.. وكنت لا أرى أنّ هناك أفكار آيديولوجية ومنحازة يُفرض على العلماء تأييدها دومًا.. لم أتوقع أبدًا أن يتعرض العلماء إلى الإكراه والإجبار في بعض أبحاثهم وكتاباتهم، وأن يُمنعوا من نشرها أحيانًا.

كنت أظن أنّ الضوابط على علماء الطبيعة ضوابط منهجيّة وتنظيميّة فقط، لا تصل إلى مصادرة المحتوى، لكنني أعترف - بناءً على كثير من المعطيات - أنّ الرأي القديم في مخيلتي أصبح محلًّا للنقد، ومخالفًا للحقيقة.

فليس "العلم" إلّا نتاجًا بشريًّا، يصيبه كلّ الذي يصيب الأعمال البشرية من الانحياز والخطأ والمغالطة في المضمون والمعنى،  تظهر النتائج للعلماء في المختبر، لكننا لا نذهب هُناك إليهم لنعاين النتائج، بل نسمع حكايتهم عنها.. إذًا هناك مجال للمسافة بين الحقيقة وبين الذي يصل إلينا، وطولها شاسع، كالطول بين غرفة المختبر الصغيرة إلى كلّ قارّات العالم.

لقد اكتشف الباحثون مؤخرًا في "فلسفة العلوم" ومعهم العديد من علماء الطبيعة وأصحاب الأبحاث المؤثرة ظهور اتجاهٍ خطير ومفاجئ في وسط العلم التجريبي، يهدف هذا الاتجاه إلى تطويع العلم لخدمة أفكاره الخاصّة، وإجبار العلماء على تبنيها -عبر وسائل متعددة - وعدم السماح لهم بالتصريح بمخالفتها ولو قسرًا، تمهيدًا لهيمنتها على العالم.

هناك مواضيع وحقائق وأبحاث علميّة تمنع من الانتشار، وتحرم البشريّة من فوائدها، ليس لشيء؛ فقط لأنّها لا تساوق مذاق الجماعة المتحكمة في العلم.. وهذا يعارض طبيعة العلم البحثيّة، ويهدّد واقعه الاكتشافي.

قيمة العلم أنه يكرّس نفسه من أجل الإنسان والحقيقة، ولكن ماذا إذا جاءت الجماعة المتحكّمة لتقلّص هذه القيمة، وتوجه العلم بدلًا من الإنسان إليها، وإلى خدمة أفكارها ومسارها المعيّن، الذي يراد للبشريّة كلها أن تتجه إليه. أصاب هذا الواقع كثيرًا من العلماء في الإحباط والتشاؤم، لقد ظنّوا أنّ المؤسسة العلميّة ستحتضنهم إذا عملوا بأمانة وإخلاص، مهما كانت نتائجهم البحثيّة، لكنّهم اكتشفوا لاحقًا أنّهم أخطأوا التقدير.

دعونا نستمع إلى عالم البيولوجيا وباحث المختبرات في جامعة كامبريدج "دوجلاس آكس" ليحكي لنا قصّته مع "الاستبداد المعرفي" في تجربته الشخصيّة.. يمتلك آكس تاريخًا أكاديميًّا حافلًا، فهو باحث معروف، وأكاديمي شهير في الوسط العلمي، اسمه ليس غريبًا عن المجلات العلمية المرموقة، وحضوره فاعل ومؤثر في المؤتمرات والندوات التخصصية.

تخصص آكس في مرحلة الدكتوراة في دراسة "بيولوجيا التطور"، وذلك في معهد " كاتليك" العالي الشهير بولاية كاليفورنيا، ثمّ عمل بعد ذلك باحثًا أكاديميًّا مختصًّا. لقد ظنّ دوجلاس آكس أنّ الأمانة تفرض عليه أن يمارس عمله بحريّة وإتقان، وكان مصيبًا في ظنّه، لكنّه نسي أن ذلك قد لا يكون مرضيًا للمهيمنين وأصحاب النفوذ في الوسط العلمي!

وفي عام 2000، قدّم آكس ورقة بحثيّة، وفقًا لتجارب عديدة قام بها، تتعلق ورقته البحثيّة تحديدًا بـ أسئلة هامّة حول هيكلة نظريّات تشارلز داروين حول التطور، حيث رأى أنّ كثيرًا من نتائجه البحثيّة لا تدعم بعض الركائز المتبناة في تفسير تلك النظريات.

قدّم "دوجلاس آكس" ورقته البحثيّة إلى رئيس مختبر البيولوجيا الجزيئية في كامبريدج " LMP"، وكان الرئيس آنذاك "ماكس بيرتوس" الحاصل على جائزة نوبل عام 1962، لاكتشافه أوّل بنى البروتين. كان آكس متحمسًا جدًّا ليسمع الملاحظات العلمية لماكس على ورقته، لعلّ ذلك يسهم في تطوير جهده البحثي.. لكنّه بعد ذلك بأسبوع من الزمن، وبالتحديد عندما ذهب إلى ماكس ليستمع رأيه في بحثه، تحطّم تمامًا، وأدرك الشيء الذي كان يخفى على ظنّه العملي، فهو يقول: "كنت أستمع بأدب لماكس، بحالة بسيطة من الاهتياج، وهو يشتكي عن أشياء لا تتعلق أبدًا بفحوى عملي، فالرجل الذي تمنيت أن أذهله قد أزعجته عوضًا عن ذلك"، لم تكن لـ "ماكس" ملاحظات حول منهجيّة البحث العلمي لدوجلاس آكس، لكنه رفض إخراجه إلى الوسط العلمي كمنتوج قام به أحد طاقم المختبر المعروف، لأنه ليس سائغًا في الوسط العلمي أن توجه الانتقادات - حتى وإن كانت علميّة - لبعض النظريات والأفكار، هناك جمود وتصلب عليها من قبل المؤثرين، لأهداف أخرى لا تتصل بالعلم أصلًا!

أدرك آكس حينها ما كان غافلًا عنه لمدّة طويلة، إنّ العلم يتعرض لخطر الأدلجة، وهناك توجهات يراد لها أن تنتشر في العالم كأفكار مسلّمة علميًّا، بينما يحظر على أي أحد أن ينتقدها أو يتحدث عنها، حتى ولو بمعطيات علميّة!

كتب دوجلاس آكس كتابًا كاملًا حول معاناته الأخيرة، وأسماه (غير قابل للتكذيب!)، يشكوا فيه الجمود والتحجر العلمي على بعض النظريات والأفكار، ويحاول أن يواجه التنمر الذي يعانيه أمثاله من الباحثين "باسم العلم".

يقول: "خدع كثيرٌ منا، وأنا منهم، بفكرة أن العلم رغم ممارسته على يد البشر، تمكن من تخليص نفسه من العيوب البشرية التي تترك بصمتها في كل مشروع بشري، حيث نعتقد أنّ نقاء العلم مضمون بصرامة الطريقة العلميّة"[[17]](#footnote-17).

وفي موضع آخر يقول: "إننا كطلاب يتوقع منا أن لا نتعلّم التفكير السائد في البيولوجيا فحسب، بل أن نقبله أيضًا دونما اعتراض. سيفترض بنا أن نلتزم بوجهة نظر معيّنة بقدر ما يفترض بنا أن نتعلمها"[[18]](#footnote-18).

تفاجأ دوجلاس بعدم توفر حريّة بحثيّة كافية في الوسط العلمي، وأنّ كثيرًا من الأبحاث والتجارب والحقائق عُرضة للإخفاء والكتمان إن لم يرض عنها المسؤولون والمتمكنون، قد تفترض أن حالة دوجلاس هي حالة فرديّة نادرة التحقق، وقد تعترض على تعميمنا في الحكم مع جزئيّة الشاهد، لكن ليس الأمر كذلك.

يُمكنك أن تعود أيضًا إلى الفيلم الوثائقي المنتج في عام 2008، تحت عنوان: (مطرودون.. غير مسموح بالذكاء)، الذي يحكي قصّة العشرات من عُلماء الطبيعة الذين مُنعوا وتم التضييق عليهم من المؤسسة العلميّة، وطرد الكثير منهم من عمله الأكاديمي، ولم يسمح لهم بنشر نتائجهم وأبحاثهم، لأنّ آرائهم العلمية كانت لا تتوافق مع ما تريد الفئة المتحكمة في مراكز الأبحاث ومنابع إنتاج "العلم".

يوثّق الفيلم قصّة عالم التاريخ الطبيعي "د. ريتشارد ستيرنبرج"، الذي كان يشغل مسؤولًا لتحرير الأبحاث في إحدى المجلات العلميّة المحكّمة، لم يكن ستيربرنج يظنّ أنّ خطيئة بسيطة كـ "الأمانة والمصداقيّة" في عرض نتاج العلماء التجريبي قد تفقده وظيفته البحثيّة ومقعده العلمي، لقد قام بنشر مقال بحثي للـ "د. ستيفن ماير"، مضمونه أنّ ماير يرى أنّ هناك كثير من المعطيات التجريبيّة تثبت فعلًا أنّ الكون صمم بذكاء، وأنّ هذا المنتوج الراقي من الواقع المبهر، لن يتم إلّا بإرادة فاعلة وخالق عظيم.

استلهم د. ماير نتيجته من خلال تجارب علميّة دقيقة تؤكّد على أنّ المادّة تتحرّك وكأنها موجّهة ومضبوطة الحركة خلال الكون، ومن خلال بعض النتائج والمعطيات الداروينيّة، وأبحاث علم الفيزياء الفضائي، لكنّه لم يتوقع أنّ مقاله قد يتسبب في أزمة كبرى لستيربرنج إذا ما تمّ نشره.

بعد أن وافق ستيربرنج على نشر مقالة ماير، وانتشرت المقالة بسرعة كالنار في الهشيم، لكونها مذهلة من حيث النتائج والمعطيات، لم يجد ستيربرنج نفسه إلا في جلسة تقريع ختاميّة في مكتب رئيس قسم الأبحاث، وحينما حاول الدفاع عن نفسه بحجّة أنّ العلم لا بدّ أن ينشر جميع الأبحاث التي يجريها العلماء المتخصصون، لتتعرض للمراجعة والنقد والتطوير من الآخرين، لم يجد نفسه إلا وقد فقد العمل وطُرد من الوظيفة.

كانت العلّة أن مقالة د. ماير تسمح بالقول إنّ هناك انسجامًا بين تفسير العلم لبداية الكون وبين الرؤى الدينيّة، لكنّ هذا مما لا يروق لبعضهم في الوسط العلمي، نعلم أنّ فهم نظريّة التطور قاد الكثيرين إلى التشكيك أو إنكار وجود الله، وزعزعة اطمئنانهم الديني، لقد كان يروّج في العالم أن الداروينيّة هي الحجّة الأقوى التي أثبتها العلم في نقض وجود الخالق، في الوقت نفسه كان العلماء يثبتون أنّ نفس العلم يدل ويشير إلى قوّة الكون اللامتناهيّة المتمثّلة في الله، لكنّ وظائف هؤلاء كانت تلغى ومقالاتهم تمنع، ونتائجهم تكتم.

هناك إرادة فوقانيّة غير منصفة تريد أن تستخدم العلم لأهدافها، تريد أن تقول للناس إنّ العلم مدعاة لزعزعة الروح والإيمان، من أجل ذلك تمنع حتّى العلم المنصف أن يتحدث، وأن يدلي بآرائه الصريحة المضادّة لهذه الأدلجة والاستئثار والكبت الفكري[[19]](#footnote-19).

أخذت هذه الظاهرة بالتكاثر، وهي توجيه العلم لخدمة أفكار خاصّة والتأثير على الناس من خلالها، وأصبح لها حضور كبير وتأثير واضح على مخرجات العلم التجريبي، ولأجل ذلك أولى كثير من الباحثين هذه الظاهرة اهتمامًا خاصًّا، وأفردوا في تحليلها وفحصها البحوث والدراسات والمقالات، لأنها تمثل عنصرًا مهمًّا في فهمنا للعلم وأسلوبه واتجاهاته وما يخرج إلينا باسمه.

كتب الباحثان "ويليام برود ونيكولاس واد" كتابًا تحت عُنوان: (خونة الحقيقة - الغش والخداع في قاعات العلم)، وقاموا بذكر الأمثلة والشواهد الكثيرة لتحيّزات نتائج العلم التجريبي واستعماله للتأثير وتغيير قناعات الناس، فيما عكف "د. بين جولديكر" على التأمّل في البيانات الطبية المزوّرة، والإعلانات العلميّة الرسميّة الكاذبة عن بعض الأدوية والتطعيمات لأهداف اقتصاديّة وماليّة، والإحصائيات المغلوطة التي تقدّم عمدًا كدعم إعلامي لبعض العمليات ومساحيق التجميل، أفرد جولديكر كلّ تأملاته في كتابه الشهير (العلم الزائف)، وانتهى إلى أنّ كثيرًا من الناس ينخدع ببعض الأبحاث العلمية الوهمية والبيانات الكاذبة، وافترض ضرورة وجود فاصل وميزان عقلي يقيم الناس من خلاله ميزان العلم وحقيقته.

فالعلاقة بين الناس وبين ما يخرجه العلم هي ليست علاقة مع العلم ذاته، بل مع العلماء في الحقيقة، والعلماء بشر وفيهم أصناف وأنواع، فيهم أصحاب الحس الإنساني، وفيهم الرأسماليون والأشرار، ومن أجل ذلك فقد تتحرك فيهم دوافع من أجل الحفاظ على المنصب والشهرة، أو من أجل تحقيق إنجاز علمي ومجد عالمي، أو من أجل الحصول على كنز من المال، فيؤدي ذلك إلى التأثير على محتوى الأبحاث العلميّة التي يقدمونها.

كلّ ذلك يحصل في العلم، الغش والخداع والتزوير، لأنّ العلماء بشر وليسوا آلهة، وبالطبع نحن عندما نقول ذلك فلا نقصد أن نهاجم العلم، الذي لا نشك أنه عامل رئيس في التقدم، بل نقصد أن نفهم طبيعة العلم التجريبي، ولا نضفي عليه صفة القداسة والأوحديّة كما يحاول العلمويون المتشددون، لأن طبيعة العلم بحثيّة وتنقيبية، وهذا يفرض عليها طابع موضوعي، لا يعترف بتوجيه الناس أو إرغامهم على تبني آرائه الخاصة.

إنّ العلم هو طريق الإنسان إلى الواقع واستثماره، يجب علينا أن ننصر العلماء الأكاديميين وندعم حريتهم في البحث، حتى في الأشياء التي لا توافق مزاجنا، لأنّ العلم لا يعود علمًا حينما تحصره جماعة في مخططاتها، بل يصبح بدلًا من ذلك مشروعًا استعماريًّا!

**السمة الثالثة: المشكلة المبدئية والأخلاقيّة.**

القِيَم هي الروح الحقيقيّة للوجود الإنساني، وبدونها تفقد الحياة كلّ مضمونها ومعناها، فهي عُنصر الجمال في معيشتنا الفسيحة المكتنفة بالمصاعب والأمل، ولعلّها المثال الأقرب إلى الذهن في حاجتنا الواقعيّة إلى اللامحسوس في حياتنا.

الإحسان والعدالة والإيثار والحب، هي العوامل الحقيقية التي تكوّن واقعيات منظومتنا الحياتيّة وبرنامجها الشعوري، وكلّها معاني مفهوميّة مركزيّة في أذهاننا، وواقعها إجرائي وإحساسي لا تجريبي واختباري. إنّ الإنسان كتلة من المشاعر مضافًا إلى عقل وإرادة، لا يعود الإنسان إنسانًا إذا لم يحمل معه الأحاسيس في هيكله الذاتي. وجدت العلمويّة نفسها في تحيّر كبير تجاه تفسير هذا الجانب الشعوري من شخصيّة الإنسان الذي له التأثير الأكبر في واقعه، والذي لا يمكن بأي حال الكشف عنه تجريبيًّا! لا يمكن أن تأتي بـ"الإيثار" مثلًا لتضعه في شريحة اختبار أو موقد حراري، لكنك لا يمكن أيضًا أن تنكر واقعيّة أثره على حياة الناس.. كيف يتفق ذلك مع القول إنّ كلّ الحقائق تجريبيّة؟!

المأزق الحقيقي للعلمويّة هو فهم الأخلاق والسلوك الإنساني، حيث لا يمكن أن تقدّم قراءة تجريبيّة لهذه الحقائق الناصعة التي لا يمكن أن تفنّد، الأمر الذي دفع بعضهم إلى إنكار واقعيّة الأخلاق والسلوك السامي، واعتباره مجرّد أشياء دأب الناس على احترامها، فالصدق ليس شيئًا حسنًا بذاته، لكن عليك أن تكون صادقًا لأنّ ذلك أصبح علامة عقلائية، وعليك أن تتجنب قتل الآخرين لأنّ ذلك ليس سلوكًا معروفًا عن النبلاء، وليس لأنه عمل دنيء وقبيح، لكنّ هذا المنهج لم يستطع كذلك أن يفسر منهج العقلاء والنبلاء، فلم يخرج من إشكاليته الأساسيّة، ولا أدري كيف يمكن أن تقوم حضارة على مبدأ براجماتيّة الواقع وإقصاء العنصر الأخلاقي[[20]](#footnote-20).

هناك مشكلة أخلاقيّة كبيرة تطرأ على المنهج العلموي، فالعلم التجريبي والإجراءات البحثيّة تثبت أن جينات الإنسان تتحرّك لتكون فريدة وأنانيّة. ألّف ريتشارد دوكنز كتابه "الجين الأناني"، وتحدث فيه عن الميل الجيني في العصب الإنساني إلى الأنانيّة والتفرّد، لكننا نلحظ سلوك الإيثار المنتشر في كثير من المجتمعات البشريّة، ونرى أنّ النّاس بشكل عامٍ يولون هذا الخلق ومن يقوم به كلّ الاحترام والتقدير والرفعة، وهذا لن ينسجم مع الحقيقة المختبرية الأنانيّة، سيصبح العلمويون عندها عاجزون عن فهم الواقع، أو تفسير السلوك الإنساني.

نحن لا نتهم تلك الأبحاث أو نكذب نتائجها، ولا نجد حرجًا في تصديقها، لأننا نرى أنه ثمة عوامل أخرى غير محسوسة، ولا يمكن تجربتها تؤثر في السلوك الإنساني أيضًا، وهي الدخيلة في الحقيقة لصناعة هذا النبل، لكنّ العلموي بحكم اختزاله للحقيقة في التجربة، فإنّه لن يستطيع تفهّم ما يجري في الواقع من خلالها دائمًا.

في الواقع، انتبه العلماء الأكاديميون لمشكلة العلمويّة مع المبادئ الإنسانيّة والأخلاق، وأظهروا في ذلك كلامهم رغم أن صوتهم قد يتعرض للخفوت بسبب عوامل أخرى، يمكن أن نجد ذلك في مقال صريح لعالم الفيزياء النظرية "مارسيليو غلايزر"، نشرتها مجلة (Scientific American) حيث يقول: "هناك فرق بين العلم والعلموية، فالعلموية تعني أن العلم يستطيع القيام بكل شيء، وهذا غير صحيح.. العلم يستطيع أن يبتكر سيارة ذات قيادة آلية، لكن ماذا عن اتخاذ القرارت الصعبة: هل أحافظ على حياة الركاب أم المشاة؟ لا بدّ من تدخل الفلاسفة والأخلاقيين هنا،... إن الناس تجهل ما يمكن للعلم القيام به، وما يقع خارج نطاقه، لن أقبل بتسييس العلم كما يفعل السياسيون الذين يسيئون توظيفه، سأكون أمينًا وشفّافًا. للعلم حدود، وذلك لا يساوق الضعف! تزجعني كثيرًا الدعاوى الكاذبة التي أطلقها أمثال ستيفن هوكنغ، ولورنس شتراوس الذين ادعوا اكتشافهم نظرية كل شيء! يستحيل أن تتكون "نظرية تفسر كل شيء" من خلال العلم التجريبي"[[21]](#footnote-21).

وحرص بروفيسور جامعة سيتي كوليج "بيقولوتشي" على بيان عدم شموليّة العلم بقوله: "إنه من السهل للغاية التقاط الأسئلة التي يعجز العلم تمامًا عن الإجابة عليها، والذي يستطيع في أفضل حالاته أن يوفر حولها معارف أساسية وجيهة (ومرحب بها)،.. في الأخلاق: هل الإجهاض مسموح بعد أن يبدأ الجنين بالشعور بالألم؟... إنّ الأدب العلمي حول كل ما سبق منعدم تمامًا، بينما الأدب الفلسفي ضخم في هذا الباب، لا يحتمل أي سؤال من هذه الأسئلة إجابات نابعة من الملاحظات أو التجارب النسقيّة، بينما يمكن أن تكون المفاهيم الحسيّة وجيهة بالنسبة لبعض هذه الأسئلة (كسؤال الإجهاض)، لكنّ الأدلة الفلسفية هي التي توفر المقاربة المناسبة للأخرى" [[22]](#footnote-22).

**الخلاصة.**

 العلم التجريبي طريق للنهضة والوصول إلى الحقيقة، وهو رابطة ومدد للتقدّم في حياة العقبات والإرادات الذكيّة، لكنه لا يتعدى إلينا بكشف الحقيقة كلّها. إننا إذا اختزلنا الحقيقة في المحسوس والمجرّب والملاحظ، وطردنا العقل والإحساس والشعور والغيب عن واقعنا، فقد خسرنا الجزء الكبير من الجمال في هذا العالم، وهذا ما لا يتوافق مع فكرة الرقي والتطور الحر، ولا مع كون العلم الطبيعي ثروة طبيعيّة لإنتاجنا.

الجمال وإرادة الأخلاق ومراقبة الخير -حيث الله هو الخير والكمال المطلق - هي المرتكزات الأساسيّة لوجودنا، بدونها قد نفقد حتى قيمة الطبيعة والتعايش والعلم، إذا لم تفعّل هذه القيم فحتى تجارب الباحثين وإمكاناتهم لن تنفعنا، لأنها لن توجه فيما هو خير. إنّ العلم مع الأخلاق قيمة الإنسان العظمى التي تريد إنقاذه والارتقاء به، لكنه بدون الأخلاق لن يكون غير مفيد فقط، بل قد يتحول إلى ضارّة ومدمّرة، كما حصل عندما أنشئت القنبلة الذريّة بإنتاج علمي، ويؤدي العلم اللاأخلاقي إلى نتائج كارثيّة، كما حصل عام 1945 في هيروشيما.

1. ستيفن هوكينج، التصميم العظيم، 13، (بيروت: دار التنوير، 2015). [↑](#footnote-ref-1)
2. مجلة أوكسفورد الجامعيّة، 1995، الصفحة 125. المصدر باللغة الإنجليزية. [↑](#footnote-ref-2)
3. ورقة علمية لـ "غراهام هارمَن "، قدمت أول مرة في مهرجان الفنون بمدينة كاسل بألمانيا، ونشرت في مجلة هندسة الفلسفة، العدد 33، رقم 2 ، تاريخ 22 /11 /2012، ترجمة: محمد سامر الست، مبادرات طابة. [↑](#footnote-ref-3)
4. مجلة أوج ، العدد 4، 2018، (السعودية- الخبر: مركز دلائل)، الصفحتان 21 و 22. [↑](#footnote-ref-4)
5. الكليني، الكافي، (طهران: دار الكتب الإسلامية،1388)، الجزء1 ، الحديث 22، الصفحة 25. [↑](#footnote-ref-5)
6. العلامة الطباطبائي، أصول الفلسفة والمذهب الواقعي، مع تعليقات تلميذه: الشهيد المطهري، ترجمة: عمار أبو رغيف، (المؤسسة العراقية للنشر والتوزيع)، الجزء1، الصفحتان 434 و 435. [↑](#footnote-ref-6)
7. محمد باقر الصدر، فلسفتنا، (لبنان: مركز الأبحاث والدراسات التخصصية للشهيد الصدر، 2010)، الصفحة 97. [↑](#footnote-ref-7)
8. Karl Popper, 2002, Unended Quest, London: Routledge, Originally published in 1976 .

ترجمة موقع أثارة للمقالات العلمية: <https://atharah.com/karl-popper-and-the-theory-of-evolution/> [↑](#footnote-ref-8)
9. صحيفة نيويورك تايمز، مقال لـ بول دفيز: <http://www.nytimes.com/2003/04/12/opinion/a-brief-history-of-the-multiverse.html?pagewanted=all>..

الترجمة من موقع "السبيل" العربي. [↑](#footnote-ref-9)
10. انظر موقع وكالة ناسا بالعربي: <https://nasainarabic.net/main/articles/view/universe-bubble-lets-check> [↑](#footnote-ref-10)
11. Paul Davies ,mind of god,Simon&Schuster,1992 p.191,

الترجمة من موقع: "السبيل" العربي. [↑](#footnote-ref-11)
12. ستيفن هوكينج، التصميم العظيم، 59، مصدر سابق. [↑](#footnote-ref-12)
13. روربت دلفينوا ، الأخطار الثقافية للنزعة العلموية وحلول الحس المشترك، ترجمة: نجيب بو عادل، (الرباط- المغرب: مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، 2019). [↑](#footnote-ref-13)
14. Nature and the Greeks، campridge , 1954 , p93.

الترجمة لـ د. سامي عامري في كتابه: البراهين، الجزء 1، الصفحة 96. [↑](#footnote-ref-14)
15. Advice to a Young Scientist ,London, Harper and Row, 1979, p.31، الترجمة : المصدر السابق [↑](#footnote-ref-15)
16. Cited in: John Lennox, Gunning for God: Oxford ,2011 p 228 ، الترجمة: المصدر السابق.. [↑](#footnote-ref-16)
17. دوجلاس آكس، غير قابل للتكذيب، 41، (السعودية- الخبر: تكوين للدراسات والأبحاث، 1440). [↑](#footnote-ref-17)
18. دوجلاس آكس، غير قابل للتكذيب، 10، المصدر نفسه. [↑](#footnote-ref-18)
19. المصدر: الفيلم الوثائقي <https://youtu.be/1khFc_5g5Fg> [↑](#footnote-ref-19)
20. Austin L. Hughes, The Folly of Scientism, The New Atlantis, p10

مترجم من موقوع أثارة العلمي: <https://atharah.com/criticism-of-scientism/#_ftn36> [↑](#footnote-ref-20)
21. المقالة العلمية:   <https://www.scientificamerican.com/article/atheism-is-inconsistent-with-the-scientific-method-prizewinning-physicist-says/> [↑](#footnote-ref-21)
22. مجلة أوج، العدد 4، (السعودية- الخبر: مركز دلائل، 2018)، الصفحة 23. [↑](#footnote-ref-22)